

سيرة الحاضرة

في تاريخ مصر والقاهرة

للمحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

الطبعة الأولى

(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَصْدِيرٌ

يعتبر دخول العرب مصر سنة ٢٠ من الهجرة على يد الصحابي الجليل عمرو بن العاص مولد تاريخ جديد لهذه البلاد، ذات الماضي البعيد؛ فلم يكد يتم الفتح، وتستقر الأحوال بها بعد الوقائع الحربية المعروفة، حتى أخذ سُكَّانُهَا يدخلون في دين الله أفواجا؛ وتنشر صدورهم للقرآن الكريم، وتصطنع ألسنتهم اللسان العربي المبين؛ وأصبح العربية لغة الدواوين. ثم يرحل إليها أعيان الصحابة ورجل التابعين، ويهوى نحوها الفقهاء والقراء وحفاظ الحديث ورواة اللغة والأدب والشعر؛ وتبنى فيها المساجد؛ لإقامة شعائر العبادات، ومداينة علوم الدين، وللفصل في ساحتها بين الناس؛ كما أنشئت فيها المدارس لتلقي العلوم والمعارف، وألحقت بها خزائن الكتب، لجذب العلماء من شتى الجهات؛ مما ارتفع به شأن العلم، وازدهرت الفنون والآداب.

وتولّى مقاليد الحكم فيها على مرّ العصور من الولاة والخلفاء والملوك والسلاطين؛ من فتحوا أبوابهم للعافين والوافدين، واستمعوا إلى الشعراء والملاحين، وأجازوا على التأليف والتصنيف، وقاموا في بناء الحضارة الإسلامية بأوفى نصيب.

بل إن مصر كانت - وما زالت - حامية الملة والدين، وراعية الإسلام والمسلمين، وقاهرة الغزاة والمعتدين؛ مما جعلها أعزّ مكان في الوطن العربي الكبير.

فكان من حقّ هذا الإقليم أن يشغل مكانه في التاريخ، وأن يُخصّ بعناية العلماء مؤرخين؛ وأن تُفرد لوصف ملامحه المؤلفات، وأن يُتدارس تاريخه في كل مكان

وزمان ... وكذلك الأمر والحمد لله كان ؛ فقد نبغ من العلماء القدامى والحدثين من وضعوا في تاريخ مصر المصنفات تختلف طولا وقصرا ، وتباين طريقة ومنهاجا ؛ منهم ابن عبد الحكم وأبو عمر الكندي وابن ميسر والمسبحي والقضاعي وابن دقاق وابن زولاق والأدفوي والعماد الأصبهاني وابن حجر والمقريزي والسيوطي والجبرتي وأبو السرور البكري وابن تغري بردي وابن إياس .

وكتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، الذي صنفه الجلال السيوطي من أنفس الكتب التي صدرت عن هؤلاء الأعلام ، وأعذبها مَوْرَدًا ، وأصفها منهاجًا ، وأسدها منهاجًا ، وأوضحها فصولًا وأبوابًا ، وأوفاهَا استيعابًا وشمولًا ، سلك فيه طريقًا قَصْدًا ، ليس بالطويل المستطرد المشوش ؛ ولا بالمقتضب الخالي من النفع والجدوى ، بدأه بذكر ماورد في شأن مصر من الآثار في القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم نشأه بذكر تاريخ مصر في عهدها القديم ؛ عهد الفراعنة وبُناة الأهرام ، على حسب ماوقع لديه من المعارف ، وعلى حسب ماكان شائعًا في عصره ، ثم وصف الفتح الإسلامي وما صاحبه من وقائع وأحداث ، وما تم من امتزاج المصريين بالعرب تحت راية الإسلام ، ثم ذكر الوافدين على مصر ومن نبغ فيها من أصحاب المذاهب ، ومن عاش بها من الحفاظ والمؤرخين والقراء والقصاص والشعراء والمنطبيين وغيرهم ؛ مع ذكر نبذ من حياتهم وتاريخ موالدهم ووفياتهم . ولم يخلُ كتابه من تاريخ الولاة الذين تعاقبوا عليها ، والقضاة الذين حكموا فيها ، والحكومات التي قامت بها ، وما بُني فيها من المساجد والمدارس والخانقاهات .

ومن أمتع ماورد فيه تلك الفصول التي عقدها في ذكر عادات المصريين ومواسمهم وأعيادهم والأسباب الدائرة بينهم ؛ وما كان فيهما من أندية الأدب ومجالس الشعر والسمع على منهج طريف أخاذ .

وكان سبيله في كلِّ ما أورده من هذا الكتاب النقلُ عن الكتب المتخصّصة في هذا الشأن ، مضافاً إليها ما وقع له من المشاهدة ؛ أو ما نقله سماعاً عن علماء عصره ؛ من الشيوخ والأقران والتلاميذ .

وللسيوطيّ منهج معروف يذكّره في مقدمات بعض كتبه - وخاصة المطولة منها - أن يورد مصادرّه من الكتب التي اعتمد عليها وأسماء مؤلّفيها ؛ فعل ذلك في كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وكتاب الإتيان في علوم القرآن ؛ وفعل ذلك أيضاً في هذا الكتاب ، قال : « وقد طالمت على هذا الكتاب كتباً شتّى ، منها فنوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر لأبي عمر الكنديّ ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاعيّ ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وإيقاظ المتغفل وإيعاظ المتأمل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوّج الزيّريّ والخطط للمقرّبيّ ، والمسالك لابن فضل الله العمريّ ، ومختصره للشيخ تقيّ الدين الكرمانيّ ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله ، ومختصره للشيخ تقيّ الدين الكرمانيّ ومباهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الأنصاريّ ، وعنوان السّير لمحمد بن عبد الله الهمدانيّ ، وتاريخ الصحابة الذين نزّلوا مصر لمحمد بن الربيع الجيزيّ ، والتّجريد في الصحابة للذهبيّ ، والإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر ، ورجال الكتب العشرة للحسينيّ ، وطبقات الحفاظ للذهبيّ ، وطبقات القراء له ، وطبقات الشافعية للسبكيّ ، وللإسنويّ ، وطبقات المالكية لابن فرّحون ، وطبقات الحنفية لابن دُقاق ، ومرآة الزّمان لسبط ابن الجوزيّ ، وتاريخ الإسلام للذهبيّ ، والعبر له ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ، والطّالع السعيد في أخبار الصعيد للأدفويّ ، وسجّع الهديل في أخبار النيل لأحمد بن يوسف التّيفاشيّ والسكردان لابن أبي حجلة ، وثمار الأوراق لابن حجة » . هذا غير ما ذكره في تضاعيف الكتاب من المراجع الأخرى .

وقد طبع هذا الكتاب عدّة طبعات ؛ يشيع في معظمها التصحيف والتّحريف والخطأ ؛

طبع طبع حجر بمصر سنة ١٨٦٠ م ، وطبع في مطبعة الوطن ، سنة ١٢٩٩ هـ ، وطبع بمطبعة
الموسوعات سنة ١٣٢٤ هـ ، وطبع بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ ، وطبع بالمطبعة الشرفية
سنة ١٣٢٧ هـ ، وطبع منه جزء صغير مع ترجمة لاتينية سنة ١٨٣٤ م ، كما أودع دور
الكتب في العالم شرقا وغربا كثير من نسخه المخطوطة .

وحينما شرعت في تحقيق هذا الكتاب رجعت إلى نسخة مخطوطة بالمكتبة التيمورية
بدار الكتب برقم ٢٣٩٤ تاريخ-تيمور تمت كتابتها في رجب سنة ٩٧٧ هـ ، تقع في ٤٦٥ صفحة ،
في كل صفحة ٣٥ سطرا تقريبا ، في كل سطر حوالى ٢٠ كلمة ؛ كتبت بخط معتاد ينجح
إلى الصحة والإنقان والضبط القليل ، ووضعت العنوانات بخط أغاظ ، وفي حواشها
ما يشير إلى قراءتها ومقابلتها . وقد اتخذت هذه النسخة أصلا في التحقيق .

كما أنى تخيرت ما طبع نسختين قريبتين من الصحة : النسخة المطبوعة في مطبعة الوطن ورزت
إليها بالحرف (ط) ، والنسخة المطبوعة بمصر على الحجر ، وقد رزت إليها بالحرف (ح) .
ثم رجعت إلى ما تيسر لي الحصول عليه من المصادر التي ذكرها ، وما اقتضاه الأمر من
الرجوع إلى الكتب الأخرى في التفسير والحديث والأدب ودواوين الشعر ومعاجم اللغة .
هذا ، وقد جعلت من منهجى في هذا الكتاب ألا أسرف في التعليق ، أو استطرذ في
الشرح والتفسير ؛ إلا بالقدر الذى يُعين على فهم النص وبه تستقيم العبارات ، محاولا
أن يبدو الكتاب في أقرب صورة من نسخة المؤلف ؛ وأن أقوم في آخر الكتاب بعمل
الفهارس المتنوعة التي تقرب نفعه ، وتُدنى جفاه .

وتصدر هذه الطبعة في جزأين ينتهى الأول منهما بذكر أخبار الخلفاء الفاطميين أو كما
سماه المؤلف : « أمراء مصر من بنى عبيد » . ويبدأ الجزء الثانى بذكر أمراء مصر من
حين ملكها بنو أيوب ، وينتهى بالفصل الذى عقده في حبوب مصر وخضرائها وقبورها .

وأما الجلال السيوطى المؤلف ، فقد عقد لنفسه فصلا في هذا الكتاب ^(١) تحدث فيه عن

(١) حسن المحاضرة ١ : ٣٣٥ - ٣٤٤ (طبعة الحلبي)

نسبه وأجداده ، وذكر أن مولده كان : « بعد المغرب مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة » ، كما ذكر الكتب التي درسها ، والشيوخ الذين تلقى عنهم ، والبلاد التي رحل إليها ، والعلوم التي حذقها ، والكتب التي ألفها ؛ مما بعد وثيقة تاريخية في حياة هذا العالم الجليل . وقد ظل السيوطي طوال حياته مشغولاً بالدرس مشغولاً بالعلم ، يلقاه عن شيوخه أو يبذله لتلاميذه ، أو يذيعه فتياً ، أو يحرره في الكتب والأسفار ؛ وحينما تقدم به العمر ، وأحس من نفسه الضعف ، خلا بنفسه في منزله بروضة القياس ، واعتزل الناس ، وتجرد للعبادة والتصنيف ، وألف كتابه : « التنفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس » .

وكان رحمه الله في حياته الخاصة على أحسن ما يكون عليه العلماء ورجال الفضل والدين ، عفيفاً كريماً ، غنى النفس ، متباعداً عن ذوى الجاه والسلطان ، لا يقف بباب أمير أو وزير ؛ قانعاً برزقه من خانقاه شيخوه ، لا يطعم فيما سواه . وكان الأسراء والوزراء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم فيردّها . وروى أن السلطان الغوري أرسل إليه امرأة خصةً وألف دينار ، فردّ الدينارين ، وأخذ الخصى ثمّ أعنته ، وجعله حارساً في الحجرة النبوية ، وقال لرسول السلطان : لا تعدّ تأنيفاً قطّ بهدية ؛ فإنّ الله أغفاناعن ذلك . وأما كتبه فقد أحصى السيوطي منها في كتابه نحواً من ثلاثمائة ؛ في التفسير وتعلقاته والقراءات ، والحديث وتعلقاته والفقه وتعلقاته ، وفنّ العربية وتعلقاته ، وفنّ الأصول والبيان والتصوّف ، وفنّ التاريخ والأدب والأجزاء المفردة ، ما بين كبير في مجلد أو مجلدات ، وصغير في كراريس أو أوراق . وذكر تلميذه الداودي المالكي أنها أنافت على خمسمائة مؤلف . وقال ابن إياس في تاريخه (حوادث ٩١١) : إنها بلغت ستمائة مؤلف .

وتقع هذه الكتب في مجلد أو مجلدات ؛ كالزهر والإتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة والدّر المنثور في التفسير بالمأثور والجامع الصغير والجامع الكبير وأمثالها ، أو في أوراق أو صفّحات ؛ كهذه الرسائل التي طبعت باسم الحاوي في الفتاوى ؛ في مجلد يحوى ثمانية وسبعين كتاباً في معظم الفنون . وقد تدارس العلماء هذه الكتب في كل مكان ،

وانتشرت في حياة السيوطي وبعده ، وعمرت بها المدارس والمعاهد ودُور الكتب ،
 وكتبه المستفتون من شتى الجهات ؛ مما أثار عليه فريقاً من أقرانه ومعاصريه من العلماء ،
 وتحاملوا عليه ، ورَمَوْه بما هو منه براء ؛ وكان من أشدّ الناس خصومةً عليه ،
 وأكثرهم تجريحاً وتشهيراً ، المؤرّخ شمس الدين السخاوي ، صاحب كتاب الضوء اللامع
 في أعيان القرن التاسع ؛ فقد ترجم له في هذا الكتاب ، ونال من علمه وخلقه ؛ مما يقع
 مثله بين النظراء والأنداد . وانتصر السيوطي لنفسه في مقامة أسماها : السكاوي على
 تاريخ السخاوي ؛ كما انتصر له فريق من تلاميذه وفريق من العلماء ممن جاء بعده ؛ منهم
 الشوكاني صاحب البدر الطالع ؛ قال في ترجمته للسيوطي بعد أن لخص مطاعن
 السخاوي فيه ، وردّ هذه المطاعن عنه : « وَصَلَّى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ غير مقبولٍ عليه لما عرفت
 من قول أئمة الجرح والتعديل ، بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض ؛ مع ظهور
 أدنى منافسة ؛ فكيف لمثل هذه المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت إلى تأليف
 بعضهم في بعض ! فإن أقلّ من هذا يوجب عدم القبول . والسخاوي رحمه الله وإن كان
 إماماً غير مدفوع ؛ لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه » .

وكانت وفاة السيوطي على ما ذكره ابن إياس في الخميس تاسع شهرى جمادى الأولى
 سنة ٩١١ هـ ، ودفن بجوار خانقاه قوصون ^(١) خارج باب القرافة ، بعد أن ملأ الدنيا
 علماً ، وشهرة وذكراً ^(٢) . رحمه الله عليه ؟

محمد أبو الفضل إبراهيم

يناير سنة ١٩٦٨ م

(١) وضع العلامة أحمد تيمور بحثاً في قبر السيوطي وتحقيق موضعه ، ونشر بالمكتبة السلفية بمصر
 سنة ١٣٤٦ هـ . وفي العام الماضي قت مع صديق العلامة الأديب الشاعر المنقذ الأستاذ سيد إبراهيم
 الخطاط بزيارة قبر السيوطي ، في ضوء ما حققه العلامة تيمور ؛ فوجدناه مقاماً على مسجد ؛ يكاد لا يعرف
 بعد أن كانت - كما أخبرنا بعض من لقيناه هناك - الصلوات تقام فيه ؛ وتؤدّى الشعائر . ولعل القاعين بأمر
 المساجد في القاهرة يعنون بهذا المسجد وإعادة إحياء الشعائر فيه ، تقديرًا للذكرى العالم الجليل .
 (٢) انظر مقدمتنا لكل من كتابي بغية الوعاة في أخبار النجاة والإتقان في علوم القرآن للمؤلف .

سَجْنُ الْمَخَاضَةِ
فِي نِيَارِخِ مِصْرَ وَالْفَاهِرَةِ
بِإِحْفَاطِ جَلَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّيْطَانِي

